مقالات مختارة

كيف خسرت ألمانيا الشرق الأوسط؟

أدى دعم برلين لإسرائيل إلى تآكل قوتها الناعمة في المنطقة

بقلم: رويري كيسي، كاتبة مستقلة مقيمة في برلين.

في أكتوبر/تشرين الأول الماضي، أثار سفير ألمانيا لدى تونس، بيتر بروغل، الجدل أثناء حديثه خلال افتتاح مدرسة ثانوية جديدة في ضواحي تونس العاصمة. وبعد أن أعرب وزير التعليم التونسي عن تضامنه مع غزة خلال الحدث، وصف بروغل الإسرائيليين بأنهم ضحايا "الإرهاب الفلسطيني"، في إشارة إلى هجوم حماس في 7 أكتوبر 2023 الذي أودى بحياة حوالي 1200 شخص في جنوب إسرائيل.

واعترض وزير التعليم بغضب، مؤكدا أن كلام السفير يتعارض مع موقف تونس من الحرب بين إسرائيل وحماس، وغادر بروغل الحدث على عجل. وعلى الإنترنت، سرعان ما أدعى بعض التونسيين أن بروغل برر قتل إسرائيل للمدنيين في غزة. وأصرت السفارة على أن بروغل أعرب عن تعاطفه مع جميع الضحايا، لكنها قالت: "لا يمكننا أن نتجاهل أن هذا التصعيد كان سببه الهجوم الإرهابي الهمجي الذي شنته حماس على إسرائيل".

وبعد أيام، تجمع المتظاهرون خارج السفارة الألمانية للمطالبة باستقالة بروغل. وكانت الاحتجاجات ضد الحرب الإسرائيلية في غزة قد استهدفت بالفعل سفارتي الولايات المتحدة وفرنسا في تونس، لكن هذه كانت المرة الأولى التي يوجهون فيها غضبهم نحو ألمانيا. ووصفت صحيفة بيلد الألمانية الانتقادات الموجهة إلى بروغل بأنها "هجوم كراهية" وذكّرت قراءها بأن المدرسة الجديدة، التي يمولها بنك التنمية الألماني جزئيا، لم يتم افتتاحها إلا بفضل سخاء البلاد.

على مدار عقود من الزمن، سعت ألمانيا إلى التوفيق بين مسؤوليتها التاريخية تجاه إسرائيل وعلاقتها الودية تجاه العالم العربي. لقد طورت برلين بصمة كبيرة في مجال القوة الناعمة، وكان يُنظر إليها منذ فترة طويلة على أنها وسيط نزيه في العلاقات التجارية والاقتصادية.

المنظمات التي تمولها الحكومة الألمانية إلى حد كبير – مثل معهد جوته، ووكالة التنميةGIZ، والمؤسسات المرتبطة بالأحزاب السياسية الرئيسية في البلاد– هي الممولين الرئيسيين لمختلف البرامج في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

منذ السابع من تشرين الأول "أكتوبر"، تضررت الصورة المتوازنة لألمانيا في مختلف أنحاء الشرق الأوسط، هناك دعم متزايد للمقاومة الفلسطينية، وإدانة لما يعتبره العديد من العرب حرب إبادة جماعية تشنها إسرائيل. وكانت ألمانيا، التي صدمتها أسوأ مذبحة يتعرض لها اليهود في يوم واحد منذ المحرقة، قد دعمت في البداية الهجوم الإسرائيلي على غزة إلى حد كبير دون قيد أو شرط، ولو أن بعض المسؤولين اتخذوا موقفاً أكثر انتقاداً في الأسابيع الأخيرة.

ومع ذلك، تواصل برلين تأكيد نفسها كواحدة من أقرب الحلفاء السياسيين والعسكريين لإسرائيل، حتى بعد أكثر من سبعة أشهر من القصف الإسرائيلي، حيث قُتل أكثر من 35 ألف فلسطيني في غزة، ويعاني القطاع من مجاعة واسعة النطاق. أدى رد فعل ألمانيا المتصلب على الحرب إلى تشويه سمعتها بسرعة في جميع أنحاء الشرق الأوسط.

صورة ألمانيا تعاني في جميع أنحاء العالم العربي

في استطلاع أجراه المركز العربي في العاصمة الأمريكية واشنطن عام 2020 وجد أن أغلبية من الجمهور العربي كانت لديهم آراء إيجابية بشأن السياسة الخارجية الألمانية، وعلى النقيض من ذلك، أظهر استطلاع للرأي أجراه معهد الدوحة في يناير/كانون الثاني الماضي (2024)، في 16 دولة عربية، أن 75% من المشاركين لديهم رأي سلبي بشأن موقف ألمانيا من الحرب بين إسرائيل وحماس، ووصف عمرو علي، عالم الاجتماع المقيم في المغرب، والذي يدرس العلاقة بين ألمانيا والعالم العربي، ذلك بأنه تحول 180 درجة في الرأي العام.

فبعد أن هيمنت الانطباعات الإيجابية عن ألمانيا لفترة طويلة في منطقة الشرق الأوسط، بارتباط اسمها بالسيارات السريعة والمنتجات عالية التقنية والسياح الودودين. ورفض الحكومة الألمانية المشاركة في حرب العراق، واستقبالها أكثر من مليون لاجئ سوري عامي 2015 و2016. وتحول العاصمة برلين موطنا لأكبر جالية فلسطينية في أوروبا، و اعتبارها مركزا للثقافة العربية والحياة الفكرية، إلى جانب افتقارها للإرث الاستعماري المباشر في الشرق الأوسط الذي لا يزال يغذي انعدام الثقة الإقليمي لدى قوى مثل فرنسا والمملكة المتحدة.

جاء خطاب المستشار أولاف شولتز أمام البوندستاغ بعد خمسة أيام من السابع من أكتوبر/تشرين الأول ليقلب هذه الصورة بتحديده لهجة ألمانيا تجاه الحرب الناشئة بين إسرائيل وحماس، قال فيه شولتز: "في هذه اللحظة، لا يوجد سوى مكان واحد لألمانيا: المكان إلى جانب إسرائيل". وبحلول تشرين الثاني/نوفمبر 2023، رخصت ألمانيا زيادة في صادرات الأسلحة إلى إسرائيل بنحو عشرة أضعاف، لتصبح ثاني أكبر مورد للأسلحة إلى البلاد منذ بداية الحرب، بعد الولايات المتحدة.

وبينما أعربت شخصيات عامة في ألمانيا عن تضامنها مع إسرائيل، قامت الشرطة بقمع المظاهرات المؤيدة للفلسطينيين، فقامت بتفريقها بالعنف أو حظرها على أساس معاداة السامية. وقد حذر الفنانون والمثقفون الذين ينتقدون

إسرائيل، بما في ذلك اليهود والعرب، من موجة من الصمت في المجتمع الألماني؛ وقد شهد الكثيرون إلغاء الجوائز والتمويل أو إلغاء الأحداث. ومن بين هؤلاء الكاتبة الفلسطينية عدنية شبلي، التي ألغى معرض فرانكفورت للكتاب حفل توزيع جوائزها في أكتوبر/تشرين الأول، وعالم الأنثروبولوجيا اللبناني المصري غسان حاج، الذي طرده معهد ماكس بلانك المرموق في فبراير/شباط، الذي قال إن وجهات النظر التي شاركها الحاج في وسائل التواصل الاجتماعي كانت "غير متوافقة" مع قيمها.

في المقابل لاحظ الباحث المغربي "علي" شيئًا لم يسبق له رؤيته من قبل، كان الشباب في جميع أنحاء العالم العربي ينشرون يوميًا عن ألمانيا، ولم تكن أي من انطباعاتهم إيجابية، فهو يربط التصورات المتغيرة للبلاد بإعادة توجيه السياسة العالمية، حيث أصبح الدعم الغربي لإسرائيل مصدراً لنفاق لا يطاق بالنسبة للكثيرين في الجنوب العالمي. وأضاف الباحث المغربي "علي" في حديثة لمجلة فورين بوليسي: "إننا نرى بالفعل بعض التحولات الكبيرة تحدث، وأحد اللاعبين الرئيسيين الذين يساهمون في ذلك هو ألمانيا".

التغيير في الرأي العام لا يرجح أن يؤثر على علاقات ألمانيا السياسية أو الاقتصادية مع الدول العربية، غير أن لديه القدرة على تقويض قوة برلين الناعمة في المنطقة، ففي حديث لمجلة فورين بوليسي مع تسعة موظفين حاليين وسابقين في ست مؤسسات ألمانية تعمل في خمس دول في الشرق الأوسط، قالوا إن موقف ألمانيا المتشدد بشأن الحرب بين إسرائيل وحماس قد عرّض عملهم مع الشركاء والمجتمعات المحلية للخطر، مما أضر بالثقة والمصداقية التي استغرق تطويرها سنوات أو عقودًا. وتحدث الجميع بشرط عدم الكشف عن هويتهم لحماية حياتهم المهنية.

البدايات للعلاقة الألمانية الإسرائيلية

سعت حكومة ألمانيا الغربية إلى بناء علاقات مع إسرائيل عندما وافقت على دفع تعويضات المحرقة للدولة الفتية في عام 1952. وكان المستشار كونراد أديناور آنذاك يرى في التعويضات وسيلة لاستعادة سمعة ألمانيا وإعادة دمج نفسها مع القوى الغربية.

جامعة الدول العربية اعترضت على خطة أديناور، بحجة أن ألمانيا لا ينبغي أن تدعم ماليا دولة كانت في حالة حرب مع جيرانها العرب ورفضت في الان ذاته تحمل المسؤولية عن طرد مئات الآلاف من الفلسطينيين في عام 1948، ويعلق دانييل مارفيكي، مؤرخ علاقات ألمانيا مع إسرائيل والمحاضر في جامعة هونغ كونغ، على ذلك بالقول: إن جامعة الدول العربية "صرحت بأن ألمانيا لا ينبغي أن تحل مشكلتها على حساب العرب أو الفلسطينيين". "لقد كانت هذه هي القضية منذ ذلك الحين".

لقد أتاح حل الدولتين المنصوص عليه في اتفاقيات أوسلو عام 1994 لبرلين فرصة لألمانيا لتصبح داعمًا رئيسيًا للمفاوضات بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وفي عام 2023، كانت ألمانيا بشكل مباشر وعبر الاتحاد

الأوروبي ثاني أكبر جهة مانحة للسلطة الفلسطينية ولوكالة الأمم المتحدة للاجئين الفلسطينيين (الأونروا) مباشرة بعد الولايات المتحدة في آخر تصنيف.

وعلق المؤرخ الألماني مارويسكي عل بذل بالقول: "كانت الفكرة هي إذا قمت بإنفاق الأموال على هذه العملية فسيتم حل الأمور وفي حين تتولى الولايات المتحدة القيادة السياسية، تتولى ألمانيا دبلوماسية دفتر الشيكات". وفي العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ومع فشل عملية أوسلو اقتربت ألمانيا من إسرائيل في المسائل الأمنية وأصبحت السياسة الخارجية لبرلين مرتبطة بشكل متزايد بالمخاوف الداخلية بشأن معاداة السامية والمشاعر المعادية لإسرائيل من قبل المسلمين في ألمانيا، والتي قال بعض السياسيين إنها أعاقت محاولات البلاد للتغلب على تاريخها، وقد لخصت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل موقف ألمانيا خلال خطاب ألقته أمام الكنيست في عام 2008، عندما قالت إن أمن إسرائيل هو Staatsraison في ألمانيا، أو احد مبررات وجود الدولة، وهو المصطلح الذي كرره شولز وآخرون بعد 7 أكتوبر.

عندما ألقت ميركل اللوم بالكامل في حرب لبنان عام 2006 وحرب غزة عام 2008 على حزب الله وحماس على التوالي، ظلت هناك معارضة للعمليات العسكرية الإسرائيلية في ألمانيا عبر عنها مسؤولون داخل الحكومة الألمانية، وفي عام 2008 إذ اتهم أحد السياسيين الديمقراطيين الاشتراكيين البارزين المستشارة آنذاك "بالانحياز إلى إسرائيل في قصفها المتواصل للبنان.

لكن في مقابل ذلك فإن السلوك العسكري الإسرائيلي في حروب غزة عامي 2014 و2021 لم يحظ بانتقادات تذكر نسبيا من السياسيين الألمان من أي حزب، ورغم أن ألمانيا استمرت في معارضة بناء المستوطنات الإسرائيلية غير القانونية في الضفة الغربية المحتلة، وأعربت عن انزعاجها إزاء الميول المناهضة للديمقراطية لدى ائتلاف رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو اليميني المتطرف، فإن هذه الاختلافات السياسية لم تغير بشكل جوهري العلاقة بين ألمانيا وإسرائيل.

وفي الأشهر التي تلت السابع من أكتوبر/تشرين الأول، ركز القادة الألمان اهتمامهم على ضحايا هجوم حماس، ومصير الرهائن في غزة، وتصاعد معاداة السامية، وما اعتبروه تهديداً وجودياً من حماس لأمن إسرائيل، و حظي المدنيين الفلسطينيين باهتمام أقل بشكل ملحوظ مما كانت عليه في الصراعات السابقة، حتى وسط المستويات التاريخية من الموت والدمار في غزة.

وفي أكتوبر الماضي، قالت وزيرة الخارجية الألمانية أنالينا بيربوك إن حماس احتجزت قطاع غزة بأكمله كرهائن وكررت مزاعم "إسرائيل" بأن الحركة المسلحة تستخدم المدنيين كدروع بشرية. وواصلت ألمانيا رفض الدعوات

لوقف إطلاق النار، التي قال شولتز إنها ستسمح لحماس بإعادة تسليحها، وامتنعت ألمانيا عن التصويت في الأمم المتحدة لوقف فوري لإطلاق النار في غزة في ديسمبر/كانون الأول 2023.

ومع ارتفاع عدد القتلى الفلسطينيين في غزة إلى أكثر من 20 ألفاً في يناير/كانون الثاني، نفى نائب المستشارة الألمانية روبرت هابك أن إسرائيل تستهدف المدنيين؛ وقال أن البعض قد يعترض على "الإجراءات القاسية" التي يتخذها الجيش الإسرائيلي، إلا أن اتهامات الإبادة الجماعية ضد إسرائيل باطلة. ووصفت ألمانيا قضية الإبادة الجماعية التي رفعتها جنوب أفريقيا ضد إسرائيل في محكمة العدل الدولية بأنها "أداة سياسية" وجمدت تمويلها للأونروا بعد أن زعمت "إسرائيل" أن بعض موظفيها شاركوا في هجوم 7 أكتوبر، يذكر أن "ألمانيا أعادت تمويلها للأونروا بعد أن توصلت مراجعة مستقلة إلى أن إسرائيل لم تقدم أدلة كافية تدعم ادعاءاتها".

إخفاء آراء ذوي الخبرة في الحكومة

نادرا ما تتم مشاركة وجهات نظر الحكومة من قبل موظفي المؤسسات الألمانية من ذوي الخبرة في الشرق الأوسط. لقد اعترفوا منذ فترة طويلة سراً بما لا يمكن قوله علناً في ألمانيا، حسبما قالت مصادر لمجلة فورين بوليسي: إن حل الدولتين قد مات، والاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية يرقى إلى مستوى الفصل العنصري، والسياسة الخارجية الألمانية غير مرتبطة بواقع الصراع "الفلسطيني– الاسرائيلي".

أصبح الانقسام بين مقار المنظمات الألمانية ومراكزها في الشرق الأوسط أكثر وضوحا منذ 7 أكتوبر/تشرين الأول، ويقول موظفو المؤسسات في العديد من البلدان إن استخدام مصطلحات مثل "الفصل العنصري" و"الإبادة الجماعية" في الإشارة إلى معاملة إسرائيل للفلسطينيين، يتم رفضها لاعتبارها معاديَة للسامية من قبل الحكومة الألمانية، ويقولون إن عملهم قد تضرر بسبب دعم ألمانيا للحرب، وصمت منظماتهم أو دعمها لإسرائيل، والردود العكسية المتعلقة بقمع الأصوات المؤيدة للفلسطينيين في ألمانيا.

فبعد عدة أسابيع من الاحتجاجات ضد بروغل في تونس، تم رسم صليب معقوف على جدران الفرع المحلي بالمدينة لمعهد جوته، المؤسسة الثقافية العالمية الرائدة التابعة للحكومة الألمانية، وألغت المنظمة سلسلة من الزيارات المدرسية وعرض فيلم في العاصمة، وأقامت معرضًا عامًا مخططًا له بدعوة فقط.

كما ألغيت فعاليات في بيروت ورام الله بسبب مخاوف أمنية، وفي مارس/آذار، أعاد الفنان المصري محمد عبلة جائزة من المعهد (جوته) احتجاجا على دعم ألمانيا لإسرائيل؛ وواجهت المنظمة رد فعل عنيفًا في عام 2022 بسبب إلغاء حديث مع الكاتب الفلسطيني محمد الكرد.

وقال ثلاثة موظفين حاليين وسابقين في الوكالة الألمانية للتعاون الدولي (GIZ) لمجلة فورين بوليسي إن تواطؤ ألمانيا في الحرب قد تسبب في غضب داخل وكالة التنمية، فلم تتخذ الوكالة الألمانية للتعاون الدولي (GIZ) موقفًا علنيًا بشأن الصراع، حتى بعد أن وضعت إسرائيل أحد موظفيها الفلسطينيين قيد الاعتقال الإداري –دون محاكمة أو اتهامات– في مارس/آذار، "وهذا يختلف عن موقف GIZ القوي ضد حرب روسيا في أوكرانيا"، وقالت المصادر لمجلة فورين بولسي إن منظمتين فلسطينيتين غير حكوميتين على الأقل عملت مع GIZ تقاطعان الوكالة الآن.

ووصف أحد الموظفين الأجواء "الاستبدادية" التي دفعت بعض الموظفين إلى الخوف من التحدث علناً ودفع آخرين إلى الاستقالة، وقال المصدر عن تصرفات ألمانيا: "أنت تمول القصف من جهة، وتقدم القليل من المساعدات لإظهار أنك إنساني".

ولتجنب لفت الأنظار وحماية موظفيها وشركائها المحليين، قامت العديد من المنظمات الألمانية التي تعمل في الشرق الأوسط بإلغاء الأحداث العامة بهدوء، أو تأجيل نشر التقارير، أو إزالة شعاراتها من المشاريع التي تدعمها، وقالت عدة مصادر في المقابل إنهم يخشون أن تتهم وسائل الإعلام أو الحكومة الألمانية منظماتهم أو شركائهم المحليين بمعاداة السامية إذا كان أي شخص ينتمي إليهم يدعم حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (BDS) أو ينتقد إسرائيل على وسائل التواصل الاجتماعي.

وزارة التعاون الاقتصادي والتنمية الألمانية، التي تمول عمل GIZ وأفرعها وشركاؤها في الخارج، قالت إن المنظمات الشريكة تخضع لـ "تدقيق دقيق" وتتحقق من أي تصريحات معادية للسامية، أو تنكر حق إسرائيل في الوجود، أو تدعم حركة المقاطعة. وتقوم الوزارة ووزارة الخارجية حاليًا بتنفيذ تخفيضات بنحو 1.5 مليار يورو في الوقت الذي تخفض فيه ألمانيا ميزانيتها للمساعدات الدولية والتنمية.

في ديسمبر/كانون الأول الماضي، أوقفت ألمانيا تمويل مشروع لدعم ضحايا الاتجار بالبشر، كان يدعمه مركز المساعدة القانونية للمرأة المصرية، بعد أن وقع رئيسه على خطاب يدين الحرب ويدعم حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات.

وخلال فترة مراجعات ما بعد السابع من أكتوبر، أوقفت ألمانيا تمويل ثلاث منظمات فلسطينية لحقوق الإنسان صنفتها "إسرائيل" على أنها منظمات إرهابية في عام 2021، "علما أن الأمم المتحدة نددت بهذه التصنيفات"، وقالت الوزارة لصحيفة فرانكفورتر العامة في فبراير إنها ناقشت هذه المراجعة بانتظام مع "إسرائيل".

في المقابل أصدر بعض الشركاء الإقليميين مقاطعتهم الخاصة ضد ألمانيا، إذ رفضت مجموعة "ملاذ الفنانين" ومقرها لبنان منحة بقيمة 35 ألف دولار من مؤسسة روزا لوكسمبورغ التابعة لحزب اليسار الاشتراكي في يناير/كانون

الثاني بعد أن انتقد أحد أعضاء مجلس الإدارة مصر لعدم السماح للفلسطينيين الفارين من غزة بالمغادرة، وهو ما قالت المجموعة اللبنانية إنه يصل إلى حد دعم التطهير العرقي.

وقال أحد العاملين في منظمة ألمانية في لبنان: "الناس في المشهد [الثقافي] في الوقت الحالي لا يريدون الارتباط بالمؤسسات الألمانية"، ويعتقد المصدر نفسه أن المزيد من العاملين في مجال الثقافة سينضمون إلى المقاطعة إذا تمكنوا من القيام بذلك؛ وأضاف أن العديد من الأشخاص الذين كانوا ينظرون إلى برلين ذات يوم كمركز للثقافة العربية، أصيبوا بخيبة أمل.

في الأسابيع الأخيرة، اتخذت ألمانيا، مثل الولايات المتحدة، لهجة أكثر قسوة تجاه "إسرائيل" وقد دعا شولتز وبيربوك الآن مراراً وتكراراً إلى وقف دائم لإطلاق النار وزيادة إيصال المساعدات الإنسانية إلى غزة للتخفيف من خطر المجاعة، كما حذروا نتنياهو من ضرورة وقف الغزو الإسرائيلي الشامل المخطط له لرفح، خلال زيارة إلى "إسرائيل" في منتصف مارس/آذار، لم يتحدث شولتز عن "قانون الدولة"، بل عن معاناة الفلسطينيين واستحالة مكافحة الإرهاب من خلال الوسائل العسكرية وحدها.

ومع ذلك، وفي مشهد لم يكن من الممكن تصوره قبل بضعة أشهر فقط، تم طرد الممثل الرئيسي لألمانيا في الأراضي الفلسطينية من جامعة بيرزيت في رام الله في أواخر أبريل، وتظهر مقاطع الفيديو طلابًا فلسطينيين يضايقونه ويركلون سيارته ويرشقونها بالحجارة أثناء مغادرتها، وأضاف الموظف من لبنان إن خطاب ألمانيا وأفعالها منذ 7 أكتوبر/تشرين الأول "دمرت حلم ألمانيا وفكرتها".

وباعتبارها واحدة من أكبر الممولين الغربيين للمجتمع المدني في العالم العربي، ستستمر ألمانيا في ممارسة تأثيرها الرئيسي في المنطقة، و عملها الأقل سياسية، مثل دعم برامج البنية التحتية وتوفير دروس اللغة، إذ لم تتأثر إلى حد كبير بالحرب بين إسرائيل وحماس، ولكن الميزة الأخلاقية التي تتمتع بها الحكومة في العديد من القضايا –وصورة ألمانيا كمجتمع ليبرالي مرحب– قد يكون من الصعب إعادة تأهيلها.

- روايري كيسي كاتبة مستقلة تقيم في برلين وتقدم تقارير عن السياسة والإسكان والهجرة ، تويتر: @Ruairi_Casey
- المصدر مجلة فورين بولسي الامريكية (foreign policy) تاريخ النشر 24 مايو 2024 .
- ترجمة مركز دراسات الامة عمان / الاردن 3 حزيران 2024.
- للاطلاع على المقال على موقع مجلة فورين بولسي يرجع الى الرابط التالي:

https://foreignpolicy.com/2024/05/24/germany-israel-gaza-palestine-war-middle-east-politics-soft-power-speech/?utm_source=Sailthru&utm_medium=email&utm_campaign=Trending%20Articles%20Digest%20%28Subs%20TEM%20-%20CTA%29%20-%2006032024&utm_content=A&utm_term=general_marketing_no_site_visit_7day

ترجمة مركز دراسات الأمة